التوكل على الله

بقلم

أ. د/ سليمان سليمان الرشة
رئيس قسم الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على النبي الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد :

فإن للتوكل أطرافاً ثلاثة : وكيل ، ومتوكل ، وتوكل .

فالطرف الأول وهو الوكيل : هو المقيم المتكفل بأرزاق العباد ، والوكيل هو الولي — عز وجل ولا أحد سواه .

يقول تعالى : (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا)[1]

والوكيل هو من توكل بالقيام بجميع ماخلق ، والوكيل هو الكفيل الذى تكفل بأرزاقنا وهو الكافى الذى يكفينا بكل خير ومن كل شر ..

والطرف الثانى : هو المتوكل وهو الذى يتوكل على الله ، ويتوكل على مولاه ومن كان كذلك : (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)[2]

والمتوكل على الله هو الذى يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير)[3] ، (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

---

(١) الإسراء الآيه : ٢ (٢) التحريم الآية : ٤
(٣) فاطر : ٣

فتمسكم النار)[١] ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[٢] ، أى كافية وكافلة .

وأما الطرف الثالث : فهو التوكل وهو طرف معنوى يتضمن علماً وعملا ، فهو منهج بين الوكيل والمتوكل ومعنى ذلك أن التوكل على الله من أشد الأسلحه مضاء وأقواها فاعلية ولما كان الأمر كذلك جعلت مقالى هذا فى التوكل على الله حتى يتبين الأمر لكل ذى عينين ويتجلى الصبح لكل من عنده قلب أو ألق السمع وهو شهيد .

وآيات القرآن الكريم جاءت تترى : والسنة المطهرة مليئه بهذا وفى الواقع أن كثيراً من سور القرآن الكريم جاءت تحمل معنى التوكل على الله إما خطابا للنبى ﷺ وإما خطاباً للأمة كلها على الإطلاق ، وكل خطاب خاطب الله به نبيه هو خطاب للأمة إلا ماخص به النبى ﷺ ، وإلى القارىء الكريم طرفا مما جاء فى القرآن الكريم .

قال تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين[٣] وقال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[٤] وقال لرسوله ﷺ (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا)[٥] وقال لرسوله (فتوكل على الله إنك على الحق المبين)[٦] وقال له (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)[٧] وقال له (وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده)[٨] وقال له (فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)[٩]

---

(١) هود ١١٣ (٢) الطلاق ٣
(٣) المائدة ٢٣ (٤) الطلاق ٣
(٥) الملك ٢٩ (٦) النمل ٨٩
(٧) الأحزاب ٤ (٨) الفرقان ٥٨
(٩) آل عمران ١٥٩

وقال عن أنبيائه ورسله (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا)(١) .

وقال عن أصحاب نبيه (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)(٢) وقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون)(٣) .

التوكل فى السنة النبوية :

ثم جاءت السنة توضح وتبين معنى التوكل الحقيق وهذا طرف من سنته ﷺ، فى الصحيحين فى حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ، ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)(٤) وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وقالها ﷺ حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفى الصحيحين أن الرسول ﷺ كان يقول (اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت ، اللهم

---

(١) إبراهيم ١١ (٢) آل عمران ١٧٣
(٣) الأنفال ٢ .

(٤) وعلى ربهم يتوكلون » فى الكلام قصر ، طريقه تقديم ما حقه التأخير ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون مفسرة لما تقدم ، ويحتمل أن تكون من ذكر العام بعد الخاص لأن صفة كل واحدة منها صفة أخص من التوكل وهو أعم من ذلك ، فتح المنعم الجزء الثانى صـ ٧٦

إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت . أن تضلنى ، أنت الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون) وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه ، مرفوعاً (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال — يعنى إذا خرج من بيته — بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له : هديت ووقيت و كفيت فيقول الشيطان لشيطان آخر كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى !) .

وبعد هذه الأحاديث أفرق بين التواكل فنقول : —

مفهوم التوكل عند بعض الناس

إن بعض الناس فهم التوكل على غير حقيقته ، فرمى بالأسباب جانباً وجلس لا كسب ولا إسترزاق وإذا ما سألته عن ذلك سمعت كلاماً عجباً ، تجده يندفع قائلا لك : « توكل على الله ، وخليها على الله » ، « ما كان لك سوف يأتيك » إلى غير ذلك من الألفاظ التى لا تمت إلى التوكل بصلة وإنما هى إن أفادت تفيد التنطع والتبطل والتواكل .

وهذه الطوائف قد بلى بها الإسلام قديماً وحديثاً وصاروا عالة عليه ومن الناس من يعتمد على السبب وحده فقط إذا كان زارعاً اعتمد على الماء والسماد والحرث . وإذا كان تاجراً اعتمد على المال وإذا كان طالب علم اعتمد على المذاكرة ، والذهاب والرواح فقط ، وهؤلاء أيضاً يمثلون خطورة على الإسلام ما بعدها خطورة .

التوكل عند العلماء :

إن التوكل على الله حقيقة أن يربط الأسباب بالمسبباب ثم يفوض الأمر إلى الله عز وجل . قال القرطبى[1] : (التوكل فى اللغة المجز

(١) تفسير القرطبى ١٤٣١/٢ — ١٤٣٢

والاعتماد على الغير ، وواكل فلان إذا ضيع أمره متكلا على غيره .
وقد اختلف العلماء في حقيقة التوكل ، فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال : قالت فرقة الرضا بالضمان وقطع الطمع من المخلوقين ، وقال قوم : التوكل ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكل : قال سهل : من قال التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة الرسول ﷺ ، لأن الله عز وجل يقول : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً »[1] فالغنيمة اكتساب ، وقال تعالى : (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)[2] فهذا عمل .

وقال النبي ﷺ (إن الله يحب العبد المحترف) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقدمون على السرية . وقال غيره : وهذا قول عامة الفقهاء ، وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد فيه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة ، وإلى هذا ذهب محققوا الصوفية ، لكنه لا يستحق عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب . فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً بل السبب والمسبب فعله تعالى والكل منه وبمشيئته ، ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم .

ثم المتوكلون على حالين : الأول : حال المتمكن في التوكل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر .

الثاني : حال غير المتمكن وهو الذي يقع منه الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين

(١) الأنفال ٦٩ (٢) الأنفال ١٢

القطعية ، والأذواق الحالية ، فلا يذال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ويلحقه بدرجات العارفين ».

إن المسلمين فى غزوة بدر ما انتصروا إلا بعد أن أفرغوا ما فى جعبتهم والمعارك القديمة والحديثة ما تم لأصحابها النصر إلا بعد أن بذلوا ما فى وسعهم وجهدهم ، فنزل عليهم نصر الله يؤيدهم ويؤازرهم ويلاحقهم ، قال علماؤنا فى مسألة الأسباب من إعتمد على السبب وحده كفر ، ومن ترك الأسباب فسق . والمسلم الحصيف الذى يربط الأسباب بالمسببات . يفوض الأمر لربه .

لقد مر عمر رضى الله عنه على جماعة يجلسون فى الطريق من غير مأوى ولا مؤنة فسألهم من أنتم ؟ قالوا : متوكلون . فقال لهم كذبتم متواكلون ، إن المتوكل هو الذى يضع الحب فى الأرض ويفوض الأمر إلى الرب .

إن الله قد تكفل بأرزاق العباد والدواب وجميع المخلوقات شريطة أن يؤدوا ما عليهم ثم يمدهم بمدد من عنده . قال تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين »[1].

إن النمل قد عرف التوكل على الله فسعى ليجمع فيأكل. نعم قد يعطى الله بدون أسباب لأن قدرته لا تتوقف على سبب ولا شىء ، وقد يرزق الله بسبب وبدون سبب . وإن سيدنا إبراهيم عندما ألقى به فى النار كان متوكلا على مولاه . لكنه شحن نفسه بقوة نفسية هائلة من التوكل جعلته ينسى الواسطة ولا يتذكر إلى رب الواسطة « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء »[2] وكما سبق فقد روى عن ابن عباس أن سيدنا إبراهيم قال

---

(١) هود ٦

(٢) النمل ٦٢

حسبنا الله ونعم الوكيل عندما ألقى فى النار وأن الرسول ﷺ كان يقولها عند كل كرب.

قال فى فتح المنعم[1] : «وأما التوكل على الله فقد قالت طائفة من الصوفية لا يستحق إسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، حتى لو هجم عليه الأسد لا ينزعج وحتى لا يسعى فى طلب الرزق، لأن الله ضمنه له وهذا القول بعيد عن الصواب، والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه ماض لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً للسنة.

فقد إستعان ﷺ بالدرع، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشراب، ادخر لأهله قوتهم ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك وقال للذى سأله : أأعقل ناقتى أم أدعها؟ قال له : «إعقلها وتوكل» فأشار إلى أن الإحتراز والسعى لا يتعارض مع التوكل.

فقد سئل الإمام أحمد(أ) عن رجل جاس فى بيته أو فى المسجد، وقال: لا أعمل شيئا حتى يأتينى رزق. فقال : هذا رجل جهل العلم، فقد قال النبي ﷺ : «إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى»، وقال : «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا اخماصاً وتروح بطاناً».

---

(١) فتح المنعم بشرح صحيح مسلم جـ٢ صفحة ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩ بتصرف

(أ) الإمام أحمد بن حنبل ولد فى ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ ببغداد وهذا هو الصحيح ونسبه عربى فهو شيبانى فى نسبه لأبيه وأمه فلم يكن أعجميا ولا هجينا بل كان عربيان خالصا. قال فيه الهيثم بن جميل : إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه انظر ابن حنبل لأبو زهرة بتصرف.

فذكر أنها تغدو وتروح فى طلب الرزق ، فقال: وكان الصحابة يتجرون، ويعملون فى نخيلهم ولنا فيهم أسوة حسنه . إنتهى كلام الإمام أحمد .

علاقة العمل بالتوكل :

وقد حثت الشريعه الإسلامية كثيراً على العمل فقال ﷺ : «وأفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه» وقال تعالى : «ياأيها الذين آمنا خذوا حذركم »[1] وقال «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم»[2] ، وأما قول بعض الصوفية : كيف تطلب ما لا تعرف مكانه ؟ أى كيف تطلب الرزق وهو مجهول لك؟ فجوابه أن يفعل السبب المعروف المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته ، يشق الأرض مثلا ويلقى الحب ويتوكل على الله فى إنباته وإنزال الغيث له ، ويحضر السلعة مثلا ، وينقلها ويتوكل على الله فى إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها منه ، بل ربما كان التكسب واجباً لقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقه فمتى ترك ذلك كان عاصياً ، والتحقيق أن التوكل يحصل بأن يثق بوعد الله ، ويعتقد بأن قضاءه واقع ، ويعمل ويتبع السنة فى الأخذ بالأسباب وفى إبتغاء الرزق . مصداقاً لقوله تعالى : «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[3] ، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه ، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ، ولا تدفع ضراً بل السبب والمسبب فعل الله تعالى ، والكل بمشيئته ، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح فى توكله

---

(١) النساء الآيه ٧١
(٢) الأنبياء الآية ٨٠
(٣) الملك الآية ١٥

والناس مع التوكل على قسمين : واصل ، وسالك فالأول صفة الواصل ، وهو الذى لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها ، وأما السالك فيقع له الإلتفات إلى السبب أحياناً ، إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية إلى أن يرقى إلى مقام الواصل و المعتدلون من الصوفية على ذلك إذ يقول أبو القاسم القشيرى : التوكل محله القلب ، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من الله تعالى ، فإن يتسر شيء فتيسر ، وإن تعسر فبتقديرة ، والله أعلم — أ. هـ .

قال ابن القيم فى مدارج السالكين : التوكل نصف الدين والنصف الثانى الإنابه فإن الدين إستعانة وعباده فالتوكل هو الإستعانه والإنابه هى العبادة ومنزلته أوسط المنازل وأجمعها ولا تزال معموره بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار والطير والوحش والبهائم فأهـــل السموات والأرض المكلفون وغيرهم فى مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه فى الإيمان ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفى حبه وتنفيذ أوامره ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى إستقامته فى نفسه وحفظ حاله من الله فارغاً عن الناس ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله من .

من رزق أو عافية أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد أو نحـــو ذلك ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى حصول الإثم والفواحش فإن أصحاب

(*) وتوفى سنة ٧٥١ هـ وشيخ الإسلام محمد بن أبى بكر أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزيه ولد من أجوين ما تحين وصار من الأئمة الكبار وهو تلميذ ابن تيميه

هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه فى حصول ذلك . بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ولهذا يلقون أنفسهم فى المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم .

فالتوكل أفضله : التوكل فى الواجب — أعنى الواجب للحق جل وعلا وواجب الخلق وواجب النفس .

وأوسعه وأنفعه : التوكل فى التأثير فى الخارج فى مصلحة دينية أو فى دفع مفسدة دنيوية وهو توكل الأنبياء فى إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين فى الأرض وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد ذلك فى التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم فمن متوكل على الله فى حصول الملك ومن متوكل على الله فى حصول رغبته . ومن صدق توكله على الله فى حصول شىء ناله فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ، وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما تـوكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته اهـ .

إن بعض الناس يعتمد على ماله أو جاهه أو سلطانه وهذه أمور زائلة ومنتهية فالمال لا يدوم والجاه لا يستمر وكل سلطان يزول إلا سلطان الله عز وجل قال حاتم الأصم ، وكان من أصحاب شقيق البلخى شارحا هذا المعنى فى كلام طويل أذكر منه طرفاً يفيد الغرض ويؤدى المراد حتى تعلم حقيقة هذا الأمر الجليل وهو التوكل على الله وحده الذى بيده كل شىء « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون »[1] . قال رحمه الله

---

(١) يس : ٨٣ .

«إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاعتز بهم وزعم آخرون أنه فى حيازة الأموال وكثرة الأولاد فافتخر بهم وحسب بعضهم الشرف والعز فى غصب أموال الناس فظلمهم وسفك دماءهم واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره وتأملت قوله تعالى «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (١). فأقبلت على ربى ونفضت يدى من هذه الملهيات والأباطيل، وقيل له فى موضع آخر علام بنيت علمك؟ قال على أربع :

على فرض لا يؤديه غيرى فأنا به مشغول وعلمت أن رزقى لا يجاوزنى إلى غيرى فقد وثقت به وعلمت أنى لا أخلو من عين الله طرفة عين فأنا منه مستحى، وعلمت أن لى أجلا يبادرنى فأبادره» اهـ. كلام حاتم رحمه الله.

تعقيب :

إن التوكل على الله سند لمن لا سند له وعماد من لا عماد له لقد ورد فى الأثر «من توكل على ماله ذل، ومن توكل على جاهه خل، ومن توكل على سلطانه ضل، ومن توكل على الله لم يزل ولم يخل ولم يضل، إن أكثر الأمة الآن حكاماً ومحكومين يعتمدون على غير الله منهم من يعتمد على الشرق، ومنهم من يعتمد على الغرب، ولذلك شكت الأمة الفقر والجوع والعرى، ويلجأون إلى وسائل لا تمت إلى الاعتماد على الله بصلة لا من قريب ولا من بعيد، فأنت تسمع من وقت لآخر من بعض الحكام إن لم يكن كلهم أن كثرة النسل إنما هى التى أشقت المجتمع، وما دمنا فى تزايد فلا يمكن أن نحيا ولا أن نعيش، ونسوا أو تناسوا قوله تعالى : «وما من دابة فى

(١) آل عمران ١٨٥.

الأرض إلا على الله رزقها » من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(١) . إن تنظيم النسل إن أريد به صحة المرأة فهو مقبول ، وإذا أريد به ما تردده الدولة على ألسنة إعلامها أننا إذا تزايدنا لا نأكل ولا نعيش فهذا فكر خاطيء لأن الله تكفل بكل شيء كما سبق ذكره : أروني جيلا من الأجيال أو أمة من الأمم اعتمدت على ربها وربطت الأسباب بمسبباتها ثم جاعت أو تعرت إن هذا المنطق المعكوس هو الذي تسبب في شقاء الأمة من جوع وعرى ، إن الدولة لو أنفقت ما تنفقه على الإعلام الضال المضل لكان للأمة شأن غير شأنها وحال غير حالها ، فإليك ربي نشكو أمرنا ولا حول ولا قوة إلا بالله . إن ما تملكه الأمة من ثروات فوق ظهر الأرض وفي باطن الأرض يغنيها عن السؤال لهذا أو ذاك ، ولو افترضنا أن إنساناً عنده كنز ولم يستعمله ثم أهمله وأخذ يتسول من هنا أو هناك فما ذنب الكنز الذي لم يخرجه صاحبه ولم ينتفع به .

إن الأمة في حاجة ماسة إلى أن تراجع حسابها كاملا مع الله فتعتمد عليه وتسأله وحده وتستعين به وحده وصدق الله إذ يقول « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً »(٢) .

والله تعالى نسأل أن يرزقنا حسن التوكل عليه والاعتماد عليه إنه نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله أولا وآخراً ؟

أ . د/ سليمان سليمان محمد الدبيشه
أستاذ ورئيس قسم الدعوة بالكلية

---

(١) النحل : ٩٧ . (٢) الطلاق : ٣ .